من تاريخ الطب الاسلامي

لصاحب السعادة الدكتور قاسم غني

سفير إيران بمصر

— ٥ —

يقول ابن سينا في المقدمة المذكورة :

« وبعد » فقد نزعت الهمة بنا إلى أن نجمع كلاماً فيما اختلف أهل البحث فيه لا تلتفت فيه لفت عصبية أو هوى أو عادة أو ألف ، ولا نبالي من مفارقة تظهر منا لما ألفه متعلمو كتب اليونانيين إلفاً عن غفلة وقلة فهم ، ولما سمع منا في كتب ألفناها للعاميين من المتفلسفة المشغوفين بالمشائين الظانين أن الله لم يهد إلا إياهم ، ولم ينل رحمته سواهم ، مع اعتراف منا بفضل أفضل سلفهم (يعني أرسطو) في تنبيهه لما نام عنه ذووه واستاذوه ، وفي تمييزه أقسام العلوم بعضها عن بعض ، وفي ترتيبه العلوم خيراً مما رتبوه ، وفي إدراكه الحق في كثير من الأشياء ، وفي تفطنه لأصول صحيحة سرية في أكثر العلوم وفي إطلاعه الناس على ما بينها فيه السلف وأهل بلاده ، وذلك أقصى ما يقدر عليه إنسان يكون أول من مدّ يديه إلى تمييز مخلوط وتهذيب مفسد ويحق على من بعده أن يلموا شعثه ويرموا ثلماً يجدونه فيما بناه ويفرعوا أصولا أعطاها فما قدر من بعده على أن يفرغ نفسه عن عهدة ما ورثه منه وذهب عمره في تفهم ما أحسن فيه والتعصب لبعض ما فرط من تقصيره ، فهو مشغول عمره بما سلف ، ليس له مهلة يراجع فيها عقله ، ولو وجدها ما استحل أن يضع ما قاله الأولون موضع المفتقر إلى ما زيد عليه أو إصلاح له أو تنقيح إياه .

وأما نحن فسهل علينا التفهم لما قالوه أول ما اشتغلنا به ولا يبعد أن يكون قد وقع إلينا من غير جهة اليونانيين علوم وكان الزمان الذي اشتغلنا فيه بذلك ريعان الحداثة ، ووجدنا من توفيق الله ما قصر علينا بسببه مدة التفطن لما أورثوه . ثم قابلنا جميع ذلك بالنمط من العلم الذي يسميه اليونانيون (المنطق) — ولا يبعد أن يكون له عند المشرقيين اسم غيره — حرفاً حرفاً فوقفنا على ما تقابل وعلى ما عصى ، وطلبنا لكل شيء وجهة الحق ما حق وزاف ما زاف .

ولما كان المشتغلون بالعلم شديدي الاعتزاء إلى (المشائين) من اليونانيين كرهنا شق العصا ومخالفة الجمهور فانحزنا إليهم وتعصبنا للمشائين إذ كانوا أولى فرقهم بالتعصب لهم — وأكثرنا ما أرادوه وقصروا فيه ولم يبلغوا أربهم منه وأغضينا عما تخبطوا فيه ، وجعلنا له وجهاً ومخرجاً ونحن بدخائله شاعرون وعلى ظله واقفون . فإن جاهرنا بمخالفتهم في الشيء الذي لم يكن الصبر عليه ، وأما الكثير فقد غطيناه بأغطية التغافل . فمن جملة ذلك ما كرهنا أن يقف الجهال على مخالفة ما هو عندهم من الشهرة بحيث لا يشكون فيه ويشكون في النهار الواضح . وبعضه قد كان من الدقة بحيث تعمش عنه عيون هؤلاء الذين في العصر — فقد بلينا برفقة منهم عارى الفهم كأنهم خشب مسندة يرون التعمق في النظر بدعة ، ومخالفة المشهور ضلالة كأنهم الحنابلة في كتب الحديث لو وجدنا منهم رشيداً أثبتناه بما حققناه — فكنا ننفعهم به ، وربما تسنى لهم الإيقال في معناه فموضونا منفعة استبدوا بالتنفير عنها .

ومن جملة ما ضننا بإعلانه عارين عليه — حق مغفول عنه يشار إليه فلا يتاق إلا بالتعصب . فلذلك جرينا في كثير مما نحن خبراء ببجدته مجرى المساعدة دون المحاقة . ولو كان ما انكشف لنا أول ما انصبينا إلى هذا الشأن لم نبد فيه مراجعات منا لأنفسنا ومعاودات من نظرنا — لما تبينا فيه رأياً ولاختلط علينا الرأي وسرى في عقائدنا الشك ، وقلنا لعل وعسى . لكنكم أصحابنا تعلمون حالنا في أول أمرنا وآخره وطول المدة التي بين حكمنا الأول والثاني ، وإذا وجدنا صورتنا هذه فبالحري أن نثق بأكثر ما قضيناه وحكمنا به واستدركناه ، ولا سيما في الأشياء التي هي الأغراض الكبرى والغايات القصوى التي اعتبرناها وتعقبناها مئين من المرات . ولما كانت الصورة هذه والقضية على هذه الجملة ، أحببنا أن نجمع كتاباً يحتوي على أمهات العلم الحق الذي استفيده من نظر كثيراً وفكر ملياً ، ولم يكن من جودة الحدس بعيداً واجتهد في التعصب لكثير فيما يخالفه الحق فوجد لتعصبه وما يقوله وفاقاً عند الجماعة غير نفسه ، ولا أحق بالإصغاء إليه من التعصب لطائفة إذا أخذ يصدق عليهم فإنه لا ينجيهم من العيوب إلا الصدق .

وما جمعنا هذا الكتاب لنظهره إلا لأنفسنا — أعني الذين يقومون منا مقام أنفسنا — وأما العامة من مزاولي هذا الشأن

فقد أعطيناهم فى (كتاب الشفاء) ما هو كثير لهم وفوق حاجتهم ، وسنعطيهم وفى اللواحق ما يصلح لهم زيادة على ما أخذوه ، وعلى كل حال فالاستعانة بالله وحده » .

ويظهر لنا من هذه المقدمة الفرق الشاسع بين المترجمين ومتتبعى فلسفة اليونان الذين كانوا يتلقون آراء فلاسفة اليونان فى جميع الأحوال بأحسن قبول ويعتبرون عقولهم منتهى ما يصل إليه العقل ، وبين الحكماء أصحاب الرأى والنظر من المتأخرين أمثال ابن سينا ممن لم يكونوا يرون فى عقول فلاسفة اليونان أقصى ما يبلغه العقل البشرى ولم يكونوا يتقبلون آراءهم كحقائق لا تقبل الشك والجدل .

كان يرى الشيخ الرئيس أن فلسفة أرسطو تعتبر كاملة لزمان أرسطو فحسب ، وأن للأجيال القادمة أن تبدى فيها رأيها تنقدها وتصحح ما تراه فيها من الخطأ كما كانت نظرة الرازى لأراء جالينوس فى الطب .

وهناك أمر آخر أرى من المناسب أن أشير إليه وهو أن ابن سينا لم يقتصر فى كتابه (الشفاء) وهو عن فلسفة المشائين — على نقل ما وصله من أقوال أرسطو عن طريق التراجم بل أنه (أى كتاب الشفاء) هو حاصل ما فهمه هو نفسه من فلسفة أرسطو

اتصل أبو عبيد الجوزجانى تلميذ الشيخ وصاحبه وجامع أكثر كتبه بابن سينا فى جرجان وصاحبه حتى آخر أيام حياته أى ما يقارب خمسة وعشرين عاماً ولازمه فى كل حال وكل مكان لم ينفك عنه فى سفر أو حضر ، وكان الراوى الثقة الذى نقل إلينا تاريخ حياة الشيخ .

يقول أبو عبيد هذا فى شرح أحوال الشيخ : - « ثم سألته أنا شرح كتب أرسطو طاليس فذكر أنه لا فراغ له إلى ذلك الوقت ، وقال ولكن إن رضيت منى بتصنيف كتاب أورد فيه ما صح عندى من هذه العلوم بلا مناظرة مع المخالفين ولا اشتغال بالرد عليهم ، فعلت ذلك ، فرضيت به .

وكان بعد محمد بن زكريا الرازى وقبل زمن الشيخ الرئيس ابن سينا طبيب آخر وهو على بن العباس المجوسى الأهوازى ، وكان تلميذاً لأبى ماهر موسى بن سيار المجوسى وله كتاب جامع فى الطب اسمه (كامل الصناعة الطبية) ألفه وقدمه لعضد الدولة الديلمى الملقب بشاهنشاه أو ملك الملوك . وكان طبيبه الخاص ومن هنا سمى الكتاب بالملكى .

ينتقد على بن العباس فى مقدمة مؤلفه هذا — وهو من الآثار الخالدة فى الطب الإسلامى ، جميع الأطباء الكبار الذين سبقوه .

نراه يقول فى المقدمة المذكورة :

فأما أبقراط الذى كان أمام هذه الصناعة وأول من دونها فى الكتب فقد وضع كتباً كثيرة فى كل نوع من أنواع هذا العلم ، منها كتاب واحد جامع لكثير مما يحتاج إليه طالب هذه الصناعة ضرورة ، وهذا الكتاب هو كتاب الفصول ، وقد يسهل جمع هذه الكتب حتى تصير كتاباً واحداً حاوياً لجميع ما قد يحتاج إليه فى بلوغ غاية هذه الصناعة ، إلا أنه استعمل فيه كسائر كتبه الإيجاز حتى صارت معان كثيرة من كلامه غامضة يحتاج القارئ لها إلى تفسير ، وأما جالينوس المقدم المفضل فى هذه الصناعة فإنه وضع كتباً كل واحد منها مفرد فى نوع من أنواع هذا العلم وطول الكلام فيه وكرره لما احتاج إليه من الاستقصاء فى الشرح وإقامة البراهين والرد على من عاند الحق وسلك سبيل المغالطين ، ولم أجد له كتاباً واحداً يصف فيه ما يحتاج إليه فى درك هذه الصناعة وبلوغ الغرض المقصود إليه منها للسبب الذى ذكرته آنفاً .

وقد وضع أورنياسيوس كتباً وكذلك فولس الأجنطى ورام كل واحد منهما أن يبين فى كتابه جميع ما يحتاج إليه ، فوجدت أورباسيوس قد قصر فى كتابه الصغير الذى وضعه لابنه (أوناقس) وإلى عوام الناس ، فلم يذكر فى الكتاب الذى وضعه لابنه (اسطات) فى تسع مقالات فإنه لم يذكر فيه شيئاً من الأمور الطبيعية التى هى الاستقصات من الأمزجة والأخلاط والأعضاء والقوى والأفعال والأرواح إلا اليسير ، ولم يذكر فى هذين الكتابين شيئاً من العمل باليد ؛ فأما كتابه الكبير الذى وضعه فى سبعين مقالة فلم أجد فيه إلا مقالة واحدة فيها ذكر تشريح الأعضاء . وأما فولس فلم يذكر فى كتابه من الأمور الطبيعية إلا اليسير . وأما أمر الأسباب والعلامات وسائر أنواع المداواة والعلاج باليد فقد بالغ فى بيانه ؛ إلا أنه لم يذكر ما ذكره فى كتابه على طريق من طرق التعليم . وأما المحدثون فلم أجد لأحد منهم كتاباً يصف فيه جميع ما يحتاج إليه فى مداواة

الأمراض والعلل وأسبابها وعلاماتها وما سوى ذلك فذكره على جهة الإيجاز من غير شرح واضح ؛ ومع ذلك فإن ترجمته ترجمة سوء رديئة تعمى على القارئ له كثيراً من المعانى التى قصد إلى شرحها ولا سيما من لم ينظر فى ترجمة حنين وأشباهه . وأما يوحنا بن سرابيون فإنه وضع كتاباً يذكر فيه شيئاً سوى مداواة العلل والأمراض التى تكون بالأدوية والتدبير ولم يذكر العلاج الذى يكون باليد ، وترك أشياء كثيرة من العلل ولم يذكرها من ذلك أنه ترك من علل الدماغ ذكر العلل المعروفة بالقطرب والمشق والاسترخاء الحادث عن القولنج ولم يذكر فى علاج العين مداواة النتوء على ما ينبغى ولم يذكر علاج السرطان فى العين وغير ذلك من علل الأجفان .

وأما مسيح فإنه وضع كتاباً نحا فيه النحو الذى نحاه هرون فى قلة شرح الأمور الطبيعية والأمور التى ليست بطبيعية مع سوء ترتيبه لما وضعه فى كتابه من العلم وقلة معرفته بتصنيف الكتب .

وأما محمد بن زكريا الرازى فإنه وضع كتابه المعروف بالمنصورى وذكر فيه جملا وجوامع من صناعة الطب ولم يغفل عن ذكر شىء مما يحتاج إليه ، إلا أنه لم يستقص شرح ما ذكره لكنه استعمل فيه الإيجاز والاختصار وهذا كان غرضه وقصده فيه ؛ فأما كتابه المعروف بالحاوى فوجدته قد ذكر فيه جميع ما يحتاج إليه المتطببون من حفظ الصحة ومداواة الأمراض والعلل التى تكون بالتدبير بالأدوية والأغذية وعلاماتها ، ولم يغفل عن ذكر شىء مما يحتاج إليه الطالب لهذه الصناعة من تدبير الأمراض والعلل ؛ غير أنه لم يذكر فيه شيئاً من الأمور الطبيعية كعلم الاستقصات والأمزجة والأخلاط وتشريح الأعضاء ولا العلاج باليد ولا ذكر ما ذكره من ذلك على ترتيب ونظام ولا على وجه من وجوه التعاليم ولا جزأه بالمقالات والفصول والأبواب . والذى يقع لى من أمره وأنوهمه على ما يوجبه القياس من علمه ومعرفته لصناعة الطب وتصنيف الكتب وفهمه فى هذا الكتاب إحدى الحالتين : إما أن يكون وضعه وذكر فيه ما ذكر من جميع علم الطب ليكون تذكرة له خاصة يرجع إليه فيما يحتاج من حفظ الصحة ومداواة الأمراض عند الشيخوخة ووقت الهرم أو النسيان أو خوفاً من آفة تعرض لكتبه فيتاض منها بهذا الكتاب ، وكذلك لكثرة تجريده التآليف من التعظيم ، وإما أن ينتفع الناس به ويكون له ذكر حسن من بعده ، فطلق جميع ما ذكره فيه تعليقاً ليعود فيه فينظمه ويرتبه ويضيف كل نوع منه إلى ما يشاكله ويثبته فى بابه على ما يليق بمعرفته لهذه الصناعة فيكون الكتاب بذلك كاملا تاماً فعاقه عن ذلك عوائق وجاءه الموت قبل إتمامه ؛ فإن كان إنما قصد به هذا الباب فقد طول فيه الكلام وعظمه من غير حاجة اضطرارية دعته إلى ذلك حتى قد عجز أكثر العلماء عن نسخه واقتنائه إلا اليسير من ذوى اليسار من أهل الأدب فقل وجوده ، وذلك أنه ذكر فى صفة كل واحد من الأمراض وأسبابه وعلاقاته ومداواته ما قاله كل واحد من الأطباء القدماء والمحدثين فى ذلك المرض من أبقراط وجالينوس إلى إسحق بن حنين ومن كان بينهما من الأطباء القدماء والمحدثين ولم يترك شيئاً مما ذكر كل واحد منهم من ذلك إلا أورده فى هذا الكتاب وعلى هذا القياس فقد صارت جميع كتب الطب محصورة فى كتابه هذا .

وأما أنا فإنى أذكر فى كتابى هذا جميع ما يحتاج إليه فى حفظ الصحة ومداواة الأمراض والعلل وطبائعها وأسبابها والأعراض التابعة لها والعلامات الدالة عليها مما يستغنى الطبيب الماهر عن معرفته إلى أن يقول (وأنا ممثل لك مثالا للطريق الذى أسلكه فى كتابى هذا من صفة الأمراض وأسبابها وعلاماتها ومداوتها وأجعل ذلك فى ذات الجنب) .

(يتبع)

نشر بالعدد الماضى إعلان ٩٤٨٦
وزارة المعارف العمومية — إعلان
مسابقة الثقافة العامة لسنة ١٩٤٨
١٩٤٩
الفقرة رقم ٦ — بحوث أدبية
وفنية وجائزتها الأولى ١٥٠ ج والثانية
١٠٠ ج والصواب بحوث أدبية وفنية
وجائزتها الأولى ١٥٠ ج والثانية ١٠٠ ج